تجليات الرحمة والحكمة والعدالة في المصائب والبلايا

كليات رسائل النور

بديع الزمان سعيد النّورسي

(الكلمة الثامنة عشرة/النقطة الثانية)

نوضح سرا من أسرار الآية الكريمة:
أحْسَنَ كُلَّ شيء خَلَقَهُ (السجدة:٧)

نعم، إنّ كل شيء في الوجود، بل حتى ما يبدو أنّه أقبحُ شيء، فيه جهة حُسنٍ حقيقية، فما من شيء في الكون، وما من حادث يقع فيه إلاّ وهو جميل بذاته، أو جميل بغيره، أيْ جميل بنتائجه التي يفضي إليها.. فهناك من الحوادث التي تبدو في ظاهر أمرها قبيحةً مضطربةً ومشوشةً، إلاّ أنّ تحت ذلك الستار الظاهري أنواعا من جمال رائق، وأنماطا من نظم دقيقة.

فَتَحْتَ حجاب الطين والغبار والعواصف والأمطار الغزيرة في الربيع تختبئ ابتسامات الأزهار الزاهية بروعتها، وتحتجب رشاقة النباتات الهيفاء الساحرة الجميلة.. وفي ثنايا العواصف الخريفية المدمرة المكتسحة للأشجار والنباتات، والهازة للأوراق الخضراء من فوق الأفنان، حاملةً نذر البين، وعازفةً لحن

الشجن والموت والاندثار، هناك بشارة الانطلاق من أسْرِ العمل لملايين الحشرات الرقيقة الضعيفة التي تتفتح للحياة في أوان تفتح الأزهار، فتحافظ عليها من قَرّ الشتاء وضغوط طقسه، فضلا عن أنّ أنواء الشتاء القاسية الحزينة تُهيءُ الأرض استعدادا لمقدم الربيع بمواكبه الجميلة الرائعة.

نعم، إنّ هناك تفتحا لأزهار معنوية كثيرة تختبئُ تحت ستار عصف العواصف إذا عصفت وزلزلة الأرض إذا تزلزلت، وانتشار الأمراض والأوبئة إذا انتشرت. فبذور القابليات، ونوى الاستعدادات الكامنة -التي لم تستنبت بعدُ- تتسنبل وتتجمل نتيجة حوادث تبدو قبيحة في ظاهر شأْنها، حتى كأنّ التقلبات العامة، والتحولات الكلية في الوجود إن هي إلاّ أمطار معنوية تنـزل على تلك البذور لتستنبتها.

بَيْدَ أنّ الإنسان المفتون بالمظاهر والمتشبث بها والذي لا ينظر إلى الأمور والأحداث إلاّ من خلال أنانيته ومصلحته بالذات، تراه تتوجَّه أنظارُه إلى ظاهر الأمور، وتنحصر فيها، فيحكم عليها بالقبح!.. وحيث إنّه يزن كل شيء بحسب نتائجه المتوجهة إليه فحسب، تراه يحكم عليه بالشر! علما أنّ الغاية من الأشياء إن كانت المتوجهةُ منها إلى

الإنسان واحدةً، فالمتوجهة منها إلى أسماء صانعها الجليل تعدُّ بالألوف. فمثلا:

الأشجار والأعشاب ذات الأشواك التي تدمي يد الإنسان الممتدة إليها يتضايق منها الإنسان ويراها شيئا ضارا لا جدوى منه، بينما هي لتلك الأشجار والأعشاب في منتهى الأهميّة حيث تحرسها وتحفظها مِمّن يريد مسَّها بسوء. ومثلا:

انقضاض العقاب على العصافير والطيور الضعيفة يبدو منافيا للرحمة، والحال أن انكشاف قابليات تلك الطيور الضعيفة وتحفيزها للظهور لا يتحقق إلاّ إذا أحسَّتْ بالخطر المحدق بها، وشعرت بقدرة الطيور الجارحة على التسلّط عليها.. ومثلا:

إنّ هطول الثلوج الذي يغمر الأشياء في فصل الشتاء ربما يثير بعض الضيق لدى الإنسان، لأنّه يحرمه من لذة الدفء ومناظر الخُضرة، بينما تختفي في قلب هذا الجليد غايات دافئة جدا ونتائج حلوة يعجز الإنسان عن وصفها.

***

(الشعاع الخامس عشر (رسالة الحجة الزهراء)/المقام الأول/القسم الثاني)

الكلمة الثالثة: وهي ﴿الرحمن الرحيم﴾

إن إشارة مختصرة جدا إلى ما فيها من حجة هي: أنه يُشاهَد بوضوح ضوء الشمس وجودُ الرحمة غير المتناهية في الكون وحقيقتُها. فهذه الرحمة الواسعة تشهد شهادة قاطعة -كشهادة الضياء على الشمس- على رحمن رحيم محتجب بستار الغيب.

نعم، إن قسما مهما من الرحمة هو الرزق، حيث يُعطى معنى الرزاق لاسم الله "الرحمن". والرزقُ نفسه يدل على الرزاق الرحيم دلالة واضحة إلى درجة تجعل مَن له ذرة من شعور مضطرا إلى التصديق والإيمان. فمثلا:

إنه سبحانه يهيئ أرزاق جميع ذوي الحياة، ولاسيما للعاجزين وبخاصة للصغار، وهم منتشرون على الأرض كافة والفضاء كله، يهيئها لهم بصورة خارقة وهي خارج نطاق اختيارهم واقتدارهم، من غير شيء؛ من نوىً متماثلة، من قطرات ماء، من حبّات تراب. حتى إنه يسخّر للفراخ الضعاف العاجزة عن

الطيران والجاثمة في أوكارها على قمم الأشجار، أمهاتِها وكأنها جندية متأهبة لتلقي الأوامر، فتجول الخضار وتجوب السواقي لجلب الأرزاق إليها. بل يسخّر اللبؤةَ الجائعة لشبلها، فتُطعمه مما حصلت عليه من لحم دون أن تأكل. ويُرسل من بين فرث ملوّث ودم أحمر لبنا سائغا للشاربين، إلى صغار الحيوانات والإنسان، يرسله من ينابيع الأثداء، بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تلوث، جاعلا شفقة والداتهم مُعينةً لهم.

وكما أنه يُهرِع الأرزاقَ الملائمة إلى جميع الأشجار المحتاجة إلى نوع من الرزق بصورة خارقة، يُنعم على مشاعر الإنسان التي تطلب نوعا من أرزاق مادية ومعنوية؛ ويُحسن لعقله وقلبه وروحه مائدةً واسعة جدا من الأرزاق. حتى كأن الكائنات مئات الألوف من موائد النعم المتداخلة ومئات الألوف من سفرات الأطعمة المتباينة، مكتنفٌ بعضها ببعض كأوراق الزهرة وكأغلفة العرانيس، غلافا داخل غلاف. فتدل لمن لم يطمس على عينه، على الرحمن الرزاق والرحيم الكريم بألسنة بعدد تلك السُفرات المبسوطة وبمقدار ما عليها من أطعمة، ألسنة متباينة متغايرة كلية وجزئية.

وإذا قيل: إن ما في هذه الدنيا من المصائب والقبائح والشرور تنافي تلك الرحمة التي وسعت كل شيء؛ وتعكّر صفوها!

الجواب: لقد أوفت جوابَ هذا السؤال الرهيب أجزاءُ رسائل النور؛ ولاسيما "رسالة القدر". نحيل إليها مشيرين إشارة قصيرة إليه:

إن لكل عنصر ولكل نوع ولكل موجود؛ وظائفَ متعددة كلية وجزئية؛ ولكلٍ مِن تلك الوظائف نتائج كثيرة وثمرات وفيرة. والأكثرية المطلقة منها هي نتائج جميلة ومصالح نافعة وخيرات ورحمات. وقسم قليل منها يصبح شرا وقبحا جزئيا وظاهريا وظلما إزاء فاقدي القابلية والمباشرين به خطأً، أو المستحِقين للجزاء والتأديب، أو لما يكون وسيلة لإثمار خيرات كثيرة. فلو مَنعت الرحمةُ ذلك العنصرَ وذلك الموجودَ الكلي عن القيام بتلك الوظيفة للحيلولة دون مجيء ذلك الشر الجزئي، لَمَا حصلت إذن جميعُ نتائجها الخيّرة الجميلة الأخرى. فتحصل من الشرور والقبائح بعدد تلك النتائج، حيث إن عدم الخيرِ شرٌ، وإفسادَ الجمال قبحٌ. بمعنى أن مئاتٍ من الشرور والمظالم تُقترف للحيلولة دون مجيئ شرٍّ واحد، وهذا مناف كليا للحكمة والمصلحة والرحمة التي تتسم بها الربوبية.

مثال ذلك: أن الثلج والبَرَد والنار والمطر وماشابهها من الأنواع ينطوي كلٌ منها على مئاتٍ من الحكم والمصالح، فإذا ما قام أحدُ المهمِلين بسوء اختياره بارتكاب شر بحق نفسه كأن أدخل يده في النار ثم قال: ليس في خَلقِ النار رحمة، فإن فوائد النار الخيّرةَ الرحيمة -النافعة وهي لا تعد ولا تحصى- تكذّبه في قوله وتصفعه على فمه.

ثم إن أهواء الإنسان ومشاعره السفلية التي لا تَرى العقبى؛ لا تكون -قطعا- مقياسا ومحكّا وميزانا لقوانين الرحمانية والحاكمية والربوبية الجارية في الكون؛ إذ يَرى الوجودَ من خلال تلك المشاعر حسب ألوان مرآته. فالقلب المظلم الخالي من الرحمة يَرى الكائناتِ باكية قبيحة تتمزق بين مخالب الظلم وتتقلب في خضم الظلمات. بينما لو أبصرها ببصر الإيمان يجدها على صورة إنسان كبير متسربل بسبعين ألف حُلّة قشيبة مَخِيطة بالرحمات والخيرات والحِكَم، بعضُها فوق بعض كأنها حورية من الجنة لَبِست سبعين حلّة من حللها. ويجدها باسمةً دوما بالرحمة ضاحكةً مستبشرة. ويُشاهِد نوعَ الإنسان الذي فيه كونا مصغرا، وكلَّ إنسان عالما أصغر، فيقول من أعماق قلبه وروحه:

﴿الحمدُلله رَبِّ العَالَمِينَ* الرّحمن الرّحيمِ* مَالكِ يَومِ الدِّينِ﴾

***

(الكلمة السادسة والعشرون/المبحث الثالث)

فإن قال: إنّ القدر قد كبّلنا وسَلبَ حريتنا، ألاَ ترى أن الإيمان بالقدر يورث ثقلا على القلب ويولد ضيقا في الروح، وهما المشتاقان إلى الانبساط والجولان؟ والجواب:

كلا، حاشَ لله! فكما أن القدر لا يورث ضيقا، فإنه يمنح خفةً بلا نهاية وراحة بلا غاية وسرورا ونورا يحقق الأمن والأمان والرَّوح والريحان؛ لأنّ الإنسان إن لم يؤمن بالقدر يضطر لأن يحمل ثقلا بقدْر الدنيا على كاهل روحه الضعيف، ضمن دائرة ضيقة وحرية جزئية وتحرر مؤقت. لأنّ الإنسان له علاقات مع الكائنات قاطبة، وله مقاصدُ ومطالب لا

تنتهيان، إلاّ أنّ قدرتَه وإرادتَه وحريتَه لا تكفي لإيفاء واحدٍ من مليون من تلك المطالب والمقاصد. ومن هنا يُفهم مدى ما يقاسيه الإنسان من ثقل معنوي في عدم الإيمان بالقدر، وكم هو مخيف وموحش.

بينما الإيمان بالقدر يحمل الإنسان على أن يضع جميعَ تلك الأثقال في سفينة القدر، مما يمنحه راحةً تامة، إذ ينفتح أمامَ الروح والقلب ميدانُ تجوال واسع، فيسيران في طريق كمالاتهما بحرية تامة. بيد أنّ هذا الإيمان يسلب من النفس الأمارة بالسوء حريتَها الجزئية ويكسر فرعونيتَها ويحطّم ربوبيتَها ويحدّ من حركاتها السائبة.

ألاَ إنّ الإيمان بالقدر لذيذ ما بعده لذة، وسعادة ما بعدها سعادة. وحيث لا نستطيع تعريف تلك اللذة والسعادة، نشير إليهما بالمثال الآتي:

رجلان يسافران معا إلى عاصمة سلطان عظيم، ويدخلان إلى قصر السلطان العامر بالعجائب والغرائب. أحدهما لا يعرف السلطان ويريد أن يسكن في القصر خلسة ويُمضيَ حياته بغصب الأموال، فيعمل في حديقة القصر. ولكن إدارة تلك الحديقة وتدبيرها

وتنظيم وارداتها وتشغيل مكائنها وإعطاء أرزاق حيواناتها الغريبة وأمثالها من أمورها المرهقة دفعَته إلى الاضطراب الدائم والقلق المستمر، حتى أصبحت تلك الحديقة الزاهية الشبيهة بالجنة جحيما لا يطاق، إذ يتألم لكل شيء يعجز عن إدارته، فيقضي وقته بالآهات والحسرات. وأخيرا يُلقى به في السجن عقابا وتأديبا له على سوء تصرفه وأدبه.

أما الشخص الثاني فإنه يعرف السلطان، ويعدّ نفسَه ضيفا عليه، ويعتقد أنّ جميع الأعمال في القصر والحديقة تُدار بسهولة تامة، بنظام وقانون وعلى وفق برنامج ومخطط. فيلقي الصعوبات والتكاليف إلى قانون السلطان، مستفيدا بانشراح تام وصفاء كامل من متع تلك الحديقة الزاهرة كالجنة. ويرى كل شيء جميلا حقا، استنادا إلى عطف السلطان ورحمته، واعتمادا على جمال قوانينه الإدارية.. فيقضي حياته في لذة كاملة وسعادة تامة.

فافهم من هذا سرَّ: "من آمن بالقدر أمِنَ من الكَدر".

***

(الكلمة السادسة والعشرون/المبحث الرابع)

إذا قلت: لقد أثبت في المبحث الأول أنّ كل ما للقدر جميل وخير، بل حتى الشر الآتي منه خير، والقبحُ الوارد منه جميل؛ بينما المصائبُ والبلايا التي تنـزل في دار الدنيا هذه تجرح هذا الحُكم وتقدحُ بهذا الإثبات.

الجواب:

يا نفسي، ويا صاحبي! يا من تتألمان كثيرا لشدة ما تحملان من شفقة ورأفة، اعلما أن الوجود خيرٌ محض والعدمَ شر محض. والدليلُ هو رجوعُ جميع المحاسن والكمالات والفضائل إلى الوجود، وكونُ العدم أساسَ جميع المعاصي والمصائب والنقائص.

ولما كان العدمُ شرا محضا، فالحالات التي تنجرّ إلى العدم أو يُشمُّ منها العدمُ تتضمن الشر أيضا؛ لذا فالحياة التي هي أسطعُ نور للوجود، تتقوى بتقلّبها ضمن أحوال مختلفة، وتتصفّى بدخولها أوضاعا متباينة، وتثمر ثمراتٍ مطلوبة باتخاذها كيفيات متعددة، وتبين نقوشَ

أسماءِ واهبِ الحياة بيانا لطيفا وجميلا بتحولها في أطوار متنوعة.

وبناءً على هذه الحقيقة تُعرض حالات على الأحياء في صور الآلام والمصائب والمشقات والبليات، فتتجدد بتلك الحالات أنوارُ الوجود في حياتهم وتتباعد عنها ظلماتُ العدم، وإذا بحياتهم تتطهر وتتصفى، ذلك لأن التوقفَ والسكون والسكوت والعطالة والدعة والرتابة، كل منها عدم في الكيفيات والأحوال، حتى إن أعظم لذة من اللذائذ تتناقص بل تزول في الحالات الرتيبة.

حاصل الكلام: لما كانت الحياةُ تبيّن نقوشَ الأسماء الحسنى، فكلُّ ما ينزل بالحياة إذن جميل وحسن.

فمثلا:

إن صانعا ثريا ماهرا يكلّف رجلا فقيرا لقاء أجرةٍ معينة ليقوم له في ظرف ساعة بدور النموذج (موديل)، لأجل إظهار آثار صنعته الجميلة وإبراز مدى ثرواته القيّمة. فيُلبسه ما نسجَه من حُلة قشيبة في غاية الجمال والإبداع، ويُجرى عليه أعمالا ويُظهر أوضاعا وأشكالا شتى لإظهار خوارق صنائعه وبدائع مهاراته، فيقصّ ويبدّل ويطوّل ويقصّر، وهكذا..

ثُرى أيحقّ لذلك الفقير الأجير أن يقول لذلك الصانع الماهر: "إنك تتعبني وترهقني بطلبك منّي الانحناء مرة والاعتدال أخرى.. وإنك تشوّه بقصّك وتقصيرك هذا القميص الذي يجمّلني ويزينني؟" ثُرى أيقدر أن يقول له: "لقد ظلمتَ وما أنصفتَ؟!".

وكذلك الأمر في الصانع الجليل الفاطر الجميل -ولله المثل الأعلى- إذ يبدّل قميص الوجود الذي ألبسه ذوي الحياة، ويقلّبه في حالات كثيرة، ذلك القميصُ المرصع باللطائف والحواس كالعين والأذن والعقل والقلب وأمثالها، يبدّله ويقلّبه إظهارا لنقوش أسمائه الحسنى.

ففي الأوضاع التي تتّسم بالآلام والمصائب أنوارُ جمالٍ لطيف تشفّ عن أشعة رحمةٍ ضمن لمعات الحكمة الإلهية، إظهارا لأحكام بعض الأسماء الحسنى.

***

(المكتوب الثاني عشر)

سؤالكم الثاني:

لماذا خُلقت الشياطين؟ فلقد خلق الله سبحانه وتعالى الشيطان والشرور، فما الحكمة فيه؟ إذ خلق الشرِّ شرٌ وخلقُ القبح قبيحٌ!.

الجواب: حاشَ لله.. وكلا.. إنَّ خَلق الشر ليس شراً، بل كسبُ الشر شرٌ، لأنَّ الخلق والإيجاد يتطلع إلى جميع النتائج ويتعلق بها، بينما الكسبُ يتعلق بنتائج خصوصية، لأنه مباشرةٌ خاصة. فمثلاً: إن النتائج المترتبة على نزول المطر تبلغ الألوف، وجميعُها نتائجُ حسنة وجميلةٌ، فإذا ما تضرر أحدُهم من المطر بسوء تصرفه وعمله، فليس له الحق أنْ يقول: إنَّ إيجاد المطر لا رحمة فيه. وليس له أنْ يحكم بأنَّ خلقَ المطر شر، بل صار شراً في حقه بسوء اختياره وسوءِ تصرفه وبكسبه هو بالذات.

وكذا خلقُ النار، فيه فوائدُ كثيرة جداً، وجميعُها خير، ولكن لو تأذى أحدُهم من النار بسوء كسبه وباستعماله السيئ لها، فليس له أن يقول: إنَّ خلق النار شر، إذ النار لم تُخلق

لإحراقه فقط، بل هو الذي أدخل يدَه في النار التي تطبخ له طعامه، فجعل بسوء عمله تلك الخادمة المطيعة عدوةً له.

حاصل الكلام: إنَّ شراً قليلاً يُقبَل به للحصول على خير كثير، إذ لو تُرك شرٌ يُنتج خيراً كثيراً للحيلولة دون حصول ذلك الشر القليل، لحصل عندئذٍ شرٌ كثير.

مثال ذلك:

عند سَوق الجيش إلى الجهاد لابد من حدوث أضرار وشرور جزئية مادية وبدنية، ومن المعلوم كذلك أنَّ في الجهاد خيراً كثيراً حيث ينجو الإسلام من سيطرة الكفار، فلو تُرِكَ الجهادُ خشية حدوث تلك الأضرار والشرور القليلة لحصل إذن شرٌ كثير من دون الحصول على خير كثير، وهذا هو عين الظلم.

ومثال آخر:

إن قطع الإصبع التي أصابها الموات (الغنغرينا) فيه خير وهو حسن، بينما يبدو ذلك القطع في الظاهر شراً، ولكن لو لم تُقطَع تلك الإصبع لقُطعت اليدُ، فيحصل آنذاك شرأكبر.

وهكذا فإنَّ خلق الشرور والأضرار والبلايا والشياطين، ليس شراً ولا قبيحاً لأن هذه

الأمور خُلقت للحصول على نتائج مهمة كثيرة جداً. فالملائكة مثلاً لا درجات رقيٍّ لهم، وذلك لعدم تسلّط الشياطين عليهم؛ لذا يكون مقامُهم ثابتاً لا يتبدل. وكذا الحيوانات فإن مراتبَها ثابتة وناقصة حيث لم تسلط عليها الشياطين. بينما في عالم الإنسان تمتد المسافة بين مراتب الرقي ودركات التدني إلى أبعاد مديدة طويلة جداً، إذ بدءاً من النماردة والفراعنة وانتهاءً إلى الصدّيقين والأولياء والأنبياء عليهم السلام هناك مراتب للرقي والتدني؛ لذا بخلق الشياطين؛ وبسر التكليف، وبإرسال الأنبياء، انفتح ميدانُ الامتحان والتجربة والجهاد والمسابقة، وبه تتميز الأرواحُ السافلة التي هي كالفحم في خساسته عن الأرواح العالية التي هي كالألماس في نفاسته. فلولا المجاهدةُ والمسابقةُ لبقيت الاستعداداتُ كامنةً في جوهر الإنسانية، أي لتساوى الفحمُ والألماس. أي لتساوت الروح السامية لسيدنا أبى بكر الصديق رضي الله عنه وهي في أعلى عليين مع روح أبي جهل التي هي في اسفل سافلين!

إذن فخلقُ الشياطين والشرور وإيجادُها ليس شراً وليس قبيحاً؛ لأنه متوجهٌ نحو نتائج كلية وعظيمة. بل الشرور والقبائح الناتجة إنما هي حاصلةٌ من سوء الاستعمال ومن الكسب

الإنساني الذي هو مباشرةٌ خاصة، راجعة إلى الكسب الإنساني وليست إلى الخلق الإلهي.

سؤالكم الثالث:

إن الله سبحانه وتعالى يُنـزِل المصائب ويُسَلِّط البلايا، ألا يكون هذا ظلماً على الأبرياء بل حتى على الحيوانات؟

الجواب: حاشَ لله وكلا.. فإن المُلك ملكُه وحده، وله أن يتصرف فيه كيف يشاء. تُرى لو أن صنّاعاً ماهراً جعلك نموذجاً "موديلاً" مقابل أجرة، وألبسك ثوباً زاهياً خاطه بأفضل ما يكون، ثم بدأ يقصّره ويطوله ويقصه.. ثم يُقعدك وينهضك ويثنيك.. كل ذلك لكي يبين حذاقته ومهارته، فهل لك أنْ تقول له: لقد شوَّهتَ جمال ثيابي الذي زادني جمالاً، وقد أرهقتني لكثرة ما تقول لي: اجلس.. انهض! فلا ريب أنك لا تقدر على هذا القول. بل لو قلتَه، فهو دليل الجنون ليس إلّا.

وعلى غِرار هذا فإن الصانع الجليل قد ألبسك جسماً بديعاً مزيناً بالعين والأذن والأنف وغيرها من الأعضاء والحواس. ولأجل إظهار آثار أسمائه الحسنى المتنوعة يبتليك بأنواع من البلايا فيُمرضك حيناً ويمتّعك بالصحة أحياناً أخرى، ويُجيعك مرة ويشبعك تارة ويظمئك

أخرى. وهكذا يقلّبك في أمثال هذه الأطوار والأحوال لتتقوى ماهيةُ الحياة وتظهر جلواتُ أسمائه الحسنى.

فإن قلت:

لماذا يبليني بهذه المصائب؟ فإنّ مائة من الحِكَم الجليلة تُسكتك، كما أشير إليها في المثال السابق. إذ من المعلوم أن السكون والهدوءَ والرتابة والعطالة نوعٌ من العدم والضرر، وبعكسه الحركة والتبدل وجودٌ وخير. فالحياة تتكامل بالحركة وتترقى بالبلايا وتنال حركات مختلفة بتجليات الأسماء وتتصفى وتتقوى وتنمو وتتسع، حتى تكون قلماً متحركاً لكتابة مقدراتها، وتفي بوظائفها، وتستحق الأجر الأخروي.

***

اللمعة الثانية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿وأيوب إذْ نادى ربّه أنّي مَسّني الضُرُّ وأنتَ أرحَمُ الراحمين﴾

(الأنبياء: ٨٣)

هذه المناجاةُ اللطيفة التي نادى بها رائدُ الصابرين سيدُنا أيوب عليه السلام مجرّبةٌ، وذاتُ مفعول مؤثّر، فينبغي أن نقتبس من نور هذه الآية الكريمة ونقول في مناجاتنا: **"**ربِّ إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين**"**.

وقصة سيدنا أيوب عليه السلام المشهورة، نلخصها بما يأتي:

إنه عليه السلام ظل صابرًا ردحًا من الزمن يكابد ألَمَ المرض العضال، حتى سرت القروحُ والجروحُ إلى جسمه كله، ومع ذلك كان صابرًا جلدًا يرجو ثوابَه العظيم من العلي القدير. وحينما أصابت الديدانُ الناشئة من جروحه قلبَه ولسانَه اللذين هما محلُّ ذكر الله وموضعُ معرفته، تضرّع إلى ربّه الكريم بهذه المناجاة الرقيقة:

﴿أنّي مَسّني الضرُّ وأنتَ أرحَمُ الراحمين﴾

خشية أنْ يصيب عبادتَه خللٌ، ولم يتضرع إليه طلبًا للراحة قط. فاستجاب الله العلي القدير لتلك المناجاة الخالصة الزكية استجابةً خارقة بما هو فوق المعتاد، وكشف عنه ضرَّه وأحسنَ إليه العافيةَ التامة وأسبغَ عليه ألطافَ رحمته العميمة. في هذه اللمعة خمس نكات.

النكتة الأولى

إنه إزاء تلك الجروح الظاهرة التي أصابت سيدَنا أيوبَ عليه السلام، توجد فينا أمراضٌ باطنية وعللٌ روحية وأسقامٌ قلبية، فنحن مصابون بكلّ هذا. فلو انقلبنا ظاهرًا بباطن وباطنًا بظاهر، لظهرنا مُثقَلين بجروحٍ وقروح بليغة، ولَبَدَت فينا أمراضٌ وعللٌ أكثَر بكثير مما عند سيدنا أيوب عليه السلام، ذلك لأن: كلَّ ما تكسبه أيدينا من إثم، وكلَّ ما يلج إلى أذهاننا من شبهة، يشقّ جروحًا غائرةً في قلوبنا، ويفجّر قروحًا دامية في أرواحنا.. ثم إن جروحَ سيدنا أيوب عليه السلام كانت تهدّد حياتَه الدنيا القصيرة بخطر، أما جروحُنا المعنوية نحن فهي تهدد حياتَنا الأخروية المديدة بخطر.. فنحن إذن محتاجون أشد الحاجة إلى تلك المناجاة الأيوبية الكريمة بأضعافِ أضعاف حاجته عليه السلام إليها. وبخاصة أن الديدان المتولدة من جروحه عليه السلام مثلما أصابت قلبَه ولسانَه، فإن الوساوس والشكوك -نعوذ بالله- المتولدة عندنا من جروحنا الناشئة من الآثام والذنوب تصيب باطنَ القلب الذي هو مستقرُّ الإيمان فتزعزعُ الإيمانَ فيه، وتمسّ اللسانَ الذي هو مترجم الإيمان فتَسلبه لذةَ الذكر

ومتعتَه الروحية، ولا تزال تنفّره من ذكر الله حتى تُسكته كليًا.

نعم، الإثمُ يتوغل في القلب ويمدّ جذورَه في أعماقه، وما ينفك ينكُتُ فيه نكتًا سوداء حتى يتمكن من إخراج نور الإيمان منه، فيبقى مظلمًا مقفرًا، فيغلظ ويقسو.

نعم، إن في كل إثم وخطيئةٍ طريقًا مؤديًا إلى الكفر، فإن لم يُمحَ ذلك الإثم فورًا بالاستغفار يتحول إلى دودة معنوية، بل إلى حية معنوية تعض القلبَ وتؤذيه.

ولنوضح ذلك بما يأتي:

مثلاً: إن الذي يرتكب سرًا إثمًا يُخجَل منه، وعندما يستحي كثيرًا من اطلاع الآخرين عليه، يثقُل عليه وجودُ الملائكة والروحانيات، ويرغب في إنكارهم بأمارة تافهة.

مثلاً: إن الذي يقترف كبيرة تُفضي إلى عذاب جهنم. إنْ لم يتحصّن تجاهها بالاستغفار، فما إنْ يسمع نذيرَ جهنم وأهوالَها يرغب من أعماقه في عدم وجودها، فيتولد لديه جرأةٌ لإنكار جهنم من أمارة بسيطة أو شبهة تافهة.

مثلاً: إن الذي لا يقيم الفرائضَ ولا يؤدي وظيفةَ العبودية حق الأداء وهو يتألم من توبيخ

آمره البسيط لتقاعسه عن واجب بسيط، فإنّ تكاسله عن أداء الفرائض إزاء الأوامر المكررة الصادرة من الله العظيم، يورثه ضِيقًا شديدًا وظلمةً قاتمةً في روحه، ويسوقُه هذا الضيقُ إلى الرغبة في أن يتفوّه ويقول ضمنًا: "ليته لم يأمر بتلك العبادة!" وتثير هذه الرغبةُ فيه الإنكارَ، الذي يُشمّ منه عداءٌ معنويٌ تجاه ألوهيته سبحانه!، فإذا ما وردت شبهةٌ تافهة إلى القلب حول وجوده سبحانه، فإنه يميل إليها كأنها دليل قاطع. فينفتح أمامَه بابٌ عظيمٌ للهلاك والخسران المبين. ولكن لا يدرك هذا الشقي أنه قد جعل نفسه -بهذا الإنكار- هدفًا لضيق معنوي أرهبَ وأفظعَ بملايين المرات من ذلك الضيق الجزئي الذي كان يشعر به من تكاسله في العبادة، كمن يفرّ من لسع بعوضة إلى عض حية!

فليُفهَم في ضوء هذه الأمثلة الثلاثة سرّ الآية الكريمة:

﴿كلاّ بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يَكسبون﴾ (المطففين: ١٤).

النكتة الثانية

مثلما وُضّح في "الكلمة السادسة والعشرين" الخاصة بالقدر: إن الإنسان ليس له حق الشكوى من البلاء والمرض بثلاثة وجوه:

الوجهالأول: أنَّ الله سبحانه يجعل ما ألبسَه الإنسانَ من لباس الوجود دليلا على صنعته المُبدعة، حيث خلقه على صورة نموذج (موديل) يفصّل عليه لباسَ الوجود، يبدّلُه ويقصُّه ويغيّرُه، مبينًا بهذا التصرف تجليات مختلفة لأسمائه الحسنى. فمثلما يستدعي اسمُ "الشافي" المرضَ، فإن اسم "الرزاق" أيضًا يقتضي الجوعَ. وهكذا فهو سبحانه مالكُ المُلك يتصرف في مُلكه كيف يشاء.

الوجهالثاني: أنَّ الحياة تتصفّى بالمصائب والبلايا، وتتزكّى بالأمراض والنوائب، وتجد بها الكمال وتتقوى وتترقى وتسمو وتثمر وتنتج وتتكامل وتبلغ هدفَها المراد لها، فتؤدي مهمتَها الحياتية. أما الحياةُ الرتيبة التي تمضي على نسق واحد وتمر على فراش الراحة، فهي أقربُ إلى العدم الذي هو شرّ محضٌ منه إلى الوجود الذي هو خيرٌ محض. بل هي تُفضي إلى العدم.

الوجهالثالث: أنَّ دار الدنيا هذه ما هي إلاّ ميدانُ اختبار وابتلاء، وهي دارُ عمل ومحل عبادة، وليست محلَّ تمتّع وتلذذ ولا مكان تسلّم الأجرة ونيل الثواب.

فمادامت الدنيا دارَ عمل ومحلَّ عبادة، فالأمراضُ والمصائب عدا الدينية منها وبشرط الصبر عليها تكون ملائمةً جدًّا مع ذلك العمل، بل منسجمةً تمامًا مع تلك العبادة، حيث إنها تمد العملَ بقوة وتشدّ من أزر العبادة، فلا يجوز التشكّي منها، بل يجب التحلي بالشكر لله بها، حيث إن تلك الأمراضَ والنوائب تحوّل كلَّ ساعة من حياة المصاب عبادةً ليوم كامل.

نعم، إن العبادة قسمان: قسم إيجابي وقسم سلبي..

فالقسم الأول معلوم لدى الجميع، أما القسم الآخر فإن البلايا والضر والأمراض تجعل صاحبَها يشعر بعَجزه وضَعفه، فيلتجئ إلى ربه الرحيم، ويتوجّه إليه ويلوذ به، فيؤدي بهذا عبادة خالصة. هذه العبادة خالصةٌ زكيّةٌ لا يدخل فيها الرياءُ قط. فإذا ما تجمّل المصابُ بالصبر وفكّر في ثواب ضرّه عند الله وجميلِ أجره عنده، وشكَر ربَّه عليها، تحولت عندئذ كلُّ ساعة من ساعات عمره كأنها يومٌ من

العبادة، فيغدو عمرُه القصير جدًّا مديدًا طويلاً، بل تتحول -عند بعضهم- كلُّ دقيقة من دقائق عمره بمثابة يوم من العبادة.

ولقد كنتُ أقلق كثيرًا على ما أصاب أحد إخوتي في الآخرة وهو "الحافظ أحمد المهاجر" بمرض خطير، فخطر إلى القلب ما يأتي: "بشّره، هنّئه، فإن كلَّ دقيقة من دقائق عمره تمضي كأنها يومٌ من العبادة".. حقًّا إنه كان يشكر ربَّه الرحيم من ثنايا الصبر الجميل.

النكتة الثالثة

مثلما بيّنّا في "الكلمات" السابقة أنه إذا ما فكّر كلُّ إنسان فيما مضى من حياته فسَيردُ إلى قلبه ولسانه "وا أسفاه"، أو: "الحمد لله". أي إما أنه يتأسف ويتحسر، أو يحمد ربَّه ويشكره. فالذي يقطّر الأسف والأسى إنما يكون بسبب الآلام المعنوية الناشئة من زوال اللذائذ السابقة وفراقها، ذلك لأن زوالَ اللذة ألَمٌ، بل قد تورث لذةٌ زائلةٌ طارئةٌ آلامًا دائمة مستمرة، فالتفكر فيها يُعصِر ذلك الألَمَ ويُقطّر منه الأسف والأسى، بينما اللذةُ المعنوية والدائمة الناشئة من زوال الآلام المؤقتة التي قضاها المرء في حياته الفائتة، تجعل لسانَه ذاكرًا بالحمد والثناء لله تعالى.. هذه حالةٌ فطرية يشعر بها كل

إنسان، فإذا ما فكر المصاب -علاوة على هذا- بما ادّخر له ربُّه الكريم من ثوابٍ جميل وجزاءٍ حَسن في الآخرة وتأملَ في تحوُّل عمره القصير بالمصائب إلى عمر مديد فإنه لا يصبر على ما انتابه من ضُرّ وحده، بل يرقى أيضًا إلى مرتبة الشكر لله والرضا بقَدَره، فينطلق لسانُه حامدًا ربَّه وقائلاً: "الحمد لله على كلِّ حال سوى الكفر والضلال".

ولقد سار مثلا عند الناس: "ما أطولَ زمنَ النوائب!". نعم، هو كذلك ولكن ليس بالمعنى الذي في عُرفِ الناس وظنِّهم من أنه طويل بما فيه من ضيق وألَم، بل هو طويلٌ مديد كالعمر الطويل بما يُثمر من نتائج حياتية عظيمة.

النكتة الرابعة

لقد بينّا في "المقام الأول للكلمة الحادية والعشرين": أنَّ الإنسان إنْ لم يشتّت ما وهَبه البارئ سبحانه من قوةِ الصبر، ولم يبعثرها في شعاب الأوهام والمخاوف، فإنّ تلك القوة يمكن أن تكون كافيةً للثبات حيال كل مصيبة وبلاء، ولكن هيمنةَ الوهم وسيطرةَ الغفلة عليه والاغترارَ بالحياة الفانية كأنها دائمة.. يؤدي إلى الفتّ من قوة صبره وتفريقها إلى آلام الماضي ومخاوف المستقبل، فلا يكفيه ما

أودعه الله من الصبر على تحمّل البلاء النازل به والثبات دونه، فيبدأ ببث الشكوى حتى كأنه يشكو الله للناس، مبديًا من قلة الصبر ونفاده ما يشبه الجنون. فضلاً عن أنه لا يحق له أن يجزع جزعَه هذا أبدًا؛ ذلك لأن كل يوم من أيام الماضي -إن كان قد مضى بالبلاء- فقد ذهب عسرُه ومشقتُه وتركَ راحتَه، وقد زال تعبُه وألَمُه وترك لذتَه، وقد ذهب ضنكُه وضيقُه وثبت أجرُه، فلا يجوز إذن الشكوى منه، بل ينبغي الشكر لله تعالى عليه بشوق ولهفة. ولا يجوز كذلك الامتعاضُ من المصيبة والسخط عليها بل ينبغي ربطُ أواصر الحب بها؛ لأن عمر الإنسان الفاني الذي قد مضى يتحول عمرًا سعيدًا باقيًا مديدًا بما يعاني فيه من البلاء. فمن البلاهة والجنون أن يبدد الإنسانُ قسمًا من صبره ويهدره بالأوهام والتفكر في البلايا التي مضت والآلام التي ولّت. أما الأيام المقبلة، فحيث إنها لم تأت بعدُ ومجهولةٌ مبهمة، فمن الحماقة التفكرُ فيها من الآن والجزعُ عمّا يمكن أن يصيب الإنسان فيها من مرض وبلاء. فكما أنه حماقةٌ أن يأكل الإنسانُ اليوم كثيرًا من الخبز ويشرب كثيرًا من الماء لما يمكن أن يصيبَه من الجوع والعطش في الغد أو بعد غد، كذلك التألّم والتضجرُ من الآن لما يمكن أن يُبتلى به في المستقبل من أمراض ومصائب

هي الآن في حكم العدم، وإظهار الجزع نحوها دون أن يكون هناك مبرر واضطرار، هو بلاهةٌ وحماقة إلى حدٍّ تسلب لياقةَ العطفِ على صاحبها والإشفاق عليه. فوق أنه قد ظلم نفسه بنفسه.

الخلاصة: إن الشكر مثلما يزيد النعمةَ، فالشكوى تزيد المصيبةَ وتسلب لياقةَ الترحمِ والإشفاقِ على صاحبها.

لقد ابتُلي رجل صالح من مدينة "أرضروم" بمرض خطير وبيل، وذلك في السنة الأولى من الحرب العالمية الأولى، فذهبتُ إلى عيادته وبثَّ لي شكواه:

- لم أذُق طعمَ النوم منذ مائة يوم.

تألمتُ لشكواه الأليمة هذه، ولكن تذكرتُ حينها مباشرة وقلت:

- "أخي! إن الأيام المائة الماضية لكونها قد ولّت ومضت فهي الآن بمثابة مائة يوم مُسرَّة مفرحة لك، فلا تفكر فيها ولا تشكُ منها، بل انظر إليها من زاوية زوالها وذهابها، واشكر ربك عليها. أما الأيام المقبلة فلأنها لم تأتِ بعدُ، فتوكّل على رحمة ربك الرحمن الرحيم واطمئن إليها. فلا تبكِ قبل أن تُضرَب، ولا تخف من غير شيء، ولا تمنح العدمَ صبغةَ

الوجود. اصرف تفكيرك في هذه الساعة بالذات، فإن ما تملكه من قوة الصبر تكفي للثبات لهذه الساعة. ولا تكن مثلَ ذلك القائد الأحمق الذي شتّت قوته في المركز يمينًا وشمالاً في الوقت الذي التحقت ميسَرةُ العدو إلى صفوف ميمنة جيشه فأمدَّتْها، وفي الوقت الذي لم تأت ميمنة العدو بعد.. فما إن علِم العدو منه هذا حتى سدّد قوةً ضئيلة في المركز وقضى على جيشه.

فيا أخي لا تكن كهذا، بل حشِّد كل قواك لهذه الساعة فقط، وترقَّب رحمة الله الواسعة، وتأمل في ثواب الآخرة، وتدبّر في تحويل المرض لعمرك الفاني القصير إلى عمر مديد باق، فقدِّم الشكرَ الوافر المسرّ إلى العلي القدير بدلاً من هذه الشكوى المريرة".

انشرح ذلك الشخص المبارك من هذا الكلام وانبسطت أساريرُه حتى شرع بالقول: "الحمد لله. لقد تضاءل ألمي كثيرًا".

النكتة الخامسة

وهي ثلاث مسائل

المسألةالأولى: إنَّ المصيبة التي تعدّ مصيبةً حقًا والتي هي مُضرةٌ فعلاً، هي التي تصيب

الدين. فلابد من الالتجاء إلى الله سبحانه والانطراح بين يديه والتضرع إليه دون انقطاع. أما المصائبُ التي لا تمس الدين فهي في حقيقة الأمر ليست بمصائبَ، لأن قسمًا منها:

تنبيهٌ رحماني يبعثه الله سبحانه إلى عبده ليوقظَه من غفلته، بمثل تنبيه الراعي لشياهه عندما تتجاوز مرعاها، فيرميها بحجر، والشياه بدورها تشعر أن راعيها ينبهها بذلك الحجر ويحذّرها من أمر خطير مضر، فتعود إلى مرعاها برضى واطمئنان. وهكذا النوائبُ الظاهرة فإن الكثير منها تنبيه إلهي، وإيقاظ رحماني للإنسان.

أما القسم الآخر من المصائب فهو كفارةٌ للذنوب. وقسم آخر أيضًا من المصائب هو منحةٌ إلهية لتطمين القلب وإفراغ السكينة فيه، وذلك بدفع الغفلة التي تصيب الإنسانَ، وإشعاره بعجزه وفقره الكامنين في جبلته.

أما المصيبة التي تنتاب الإنسان عند المرض -فكما ذكرنا آنفا- فهي ليست بمصيبة حقيقية، بل هي لطفٌ رباني لأنه تطهيرٌ للإنسان من الذنوب وغسلٌ له من أدران الخطايا، كما ورد في الحديث الصحيح: (مَا مِنْ

مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، إِلاَّ حَاتَّ الله عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ).

وهكذا فإن سيدنا أيوب عليه السلام لم يدعُ في مناجاته لأجل نفسه وتطمينًا لراحته، وإنما طلب كشفَ الضر من ربه عندما أصبح المرضُ مانعًا لذكر الله لسانًا، وحائلاً للتفكر في ملكوت الله قلبًا. فطلب الشفاء لأجل القيام بوظائف العبودية خالصةً كاملة. فيجب علينا نحن أيضًا أن نقصد -بتلك المناجاة- أول ما نقصد: شفاءَ جروحنا المعنوية وشروخنا الروحية القادمة من ارتكاب الآثام واقتراف الذنوب، ولنا الالتجاء إلى الله القدير عندما تحُول الأمراضُ المادية دون قيامنا بالعبادة كاملة، فنتضرع إليه عندئذ بكل ذل وخضوع ونستغيثه دون أن يبدر منا أيُّ اعتراض أو شكوى، إذ مادمنا راضين كل الرضا بربوبيته الشاملة فعلينا الرضا والتسليم المطلق بما يمنحه سبحانه لنا بربوبيته.. أما الشكوى التي تومئ إلى الاعتراض على قضائه وقدَره، وإظهارِ التأفف والتحسر، فهي أشبه ما يكون بنقدٍ للقدر الإلهي العادل واتهامٍ لرحمته الواسعة.. فمن ينقد القدر كمن يناطح الجبل ومَن يتهم الرحمةَ يُحرم منها. إذ كما أن استعمال اليد المكسورة للثأر يزيدها كسرًا، فإن

مقابلة المبتلى مصيبته بالشكوى والتضجر والاعتراض والقلق تضاعف البلاء.

المسألةالثانية: كلما استعظمتَ المصائب المادية عظُمَت، وكلما استصغرتَها صغُرت. فمثلاً: كلما اهتم الإنسان بما يتراءى له من وهْم ليلاً يضخم ذلك في نظره، بينما إذا أهمله يتلاشى. وكلما تعرض الإنسان لوكر الزنابير ازداد هجومُها وإذا أهملها تفرقت.

فالمصائب المادية كذلك، كلما تعاظمها الإنسان واهتم بها وقلق عليها تسربت من نافذة الجسد إلى القلب واستقرت فيه، وعندها تتنامى مصيبةٌ معنوية في القلب وتكون ركيزةً للمادية منها فتستمر الأخيرة وتطول. ولكن متى ما أزال الإنسانُ القلقَ والوهم من جذوره بالرضا بقضاء الله، وبالتوكل على رحمته، تضمحل المصيبةُ المادية تدريجيًا وتذهب، كالشجرة التي تموت وتجف أوراقُها بانقطاع ججذورها.

ولقد عبّرتُ عن هذه الحقيقة يومًا بما يأتي:
﴿ جاءت ترجمة هذه الفقرة بشيء من التصرف. وأصلها في "المكتوب السادس".﴾

ومن الشكوى بلاءٌ.

دعها يا مسكين وتوكلْ.

نجواكَ للوهابِ فسَلِّم.

فإذا الكلُّ عطاء.

وإذا الكلُّ صفاء.

فبغير الله، دنياك متاهاتٌ وخوف!

أفيشكو مَن على كاهله يحمل كلَّ الراسيات

حبةَ رملٍ ضئيلة؟

إنما الشكوى بلاءٌ في بلاء.

وآثامٌ في آثام وعناء!

أنت إنْ تَبْسُم في وجه البلاء.

عادت الأرزاءُ تذوي وتذوب.

تحت شمس الحق حبّاتِ بَرَد!

فإذا دنياك بَسمة،

بسمةٌ من ثغرها ينسابُ ينبوعُ اليقين.

بسمةٌ نشوى بإشراق اليقين.
بسمةٌ حيرى بأسرار اليقين.

نعم..! إن الإنسان مثلما يخفف حدَّة خصمه باستقباله بالبِشر والابتسامة، فتتضاءل سَورة العداوة وتنطفئ نارُ الخصومة، بل قد تنقلب صداقةً ومصالحةً، كذلك الأمر في استقبال البلاء بالتوكل على القدير يُذهِبُ أثره.

المسألةالثالثة: أن لكل زمان حُكمَه، وقد غيّر البلاءُ شكلَه في زمن الغفلة هذا، فلا يكون البلاءُ بلاءً عند البعض دومًا، بل إحسانًا إلهيًا ولطفًا منه سبحانه. وأرى المبتلين بالضر في هذا الوقت محظوظين سعداء بشرط ألاّ يمس دينَهم، فلا يولد المرض والبلاء عندي ما يجعلهما مضرَّين في نظري حتى أُعاديهما، ولا يورثانني الإشفاق والتألم على صاحبهما، ذلك ما أتاني شاب مريض إلاّ وأراه أكثر ارتباطًا من أمثاله بالدين، وأكثر تعلقًا منهم بالآخرة.. فأفهم من هذا أن المرض بحق هؤلاء ليس بلاء، بل هو نعمةٌ من نعمه سبحانه التي لا تعد ولا تحصى، حيث إن ذلك المرض يمد صاحبَه بمنافع غزيرة من حيث حياته الأُخروية ويكون

له ضربًا من العبادة، مع أنه يمس حياته الدنيا الفانية الزائلة بشيء من المشقة.

نعم، قد لا يستطيع هذا الشاب أن يحافظ على ما كان عليه في مرضه من الالتزام بالأوامر الإلهية فيما إذا وجد العافية، بل قد ينجرف إلى السفاهة بطيش الشباب ونزواته وبالسفاهة المستشرية في هذا الزمان.

خاتمة

إن الله سبحانه قد أدرج في الإنسان عجزًا لا حدّ له، وفقرًا لا نهاية له، إظهارًا لقدرته المطلقة وإبرازًا لرحمته الواسعة. وقد خلقه على صورة معينة بحيث يتألم بما لا يحصى من الجهات، كما أنه يتلذذ بما لا يعد من الجهات، إظهارًا للنقوش الكثيرة لأسمائه الحسنى. فأبدعه سبحانه على صورة ماكنة عجيبة تحوي مئات الآلات والدواليب، لكل منها آلامها ولذائذها ومهمتها وثوابها وجزاؤها، فكأن الأسماء الإلهية المتجلية في العالم الذي هو إنسان كبير تتجلى أكثرُها أيضًا في هذا الإنسان الذي هو عالم أصغر، وكما أن ما فيه من أمور نافعة -كالصحة والعافية واللذائذ وغيرها- تدفعه إلى الشكر وتسوق تلك الماكنة إلى القيام بوظائفها من عدة جهات،

حتى يغدو الإنسانُ كأنه ماكنة شكر. كذلك الأمر في المصائب والأمراض والآلام وسائر المؤثرات المهيجة والمحركة، تسوق الدواليبَ الأخرى لتلك الماكنة إلى العمل والحركة وتثيرها من مكمنها فتفجّر كنوزَ العجز والضعف والفقر المندرجة في الماهية الإنسانية. فلا تمنح المصائبُ الإنسانَ الالتجاء إلى البارئ بلسان واحد، بل تجعله يلتجئ إليه ويستغيثه بلسان كل عضو من أعضائه. وكأن الإنسان بتلك المؤثرات والعلل والعقبات والعوارض يغدو قلمًا يتضمن آلاف الأقلام، فيكتب مقدّرات حياته في صحيفة حياته أو في اللوح المثالي، وينسج لوحةً رائعة للأسماء الإلهية الحسنى، ويصبح بمثابة قصيدة عصماء ولوحة إعلان.. فيؤدي وظيفة فطرته.

***

(الشعاع الثاني/المقام الأول/الثمرة الأولى)

إن الذي ساقني إلى حقيقة هذه الثمرة الأولى وأوصلني إليها هو استشعارٌ ذوقي يخصني، وهو على النحو الآتي:

لقد كنتُ أتألم لحال ذوي الحياة، ولاسيما لذوي الشعور منها، وبالأخص لحال الإنسان، وبخاصة المظلومين والمبتلِين بالمصائب منهم، لِما أحملُ من عطفٍ متزايد وشفقة مفرطة، فكانت أحوالُهم تمسّ عطفي وتثير شفقتي وتُوجع قلبي وتعصره.

فكنت أقول من أعماق قلبي: "إن القوانين المطّردة الساريةَ في العالم لا تسمع ما يعانيه هؤلاء البائسون الضعفاء العاجزون، وإن تلك العناصر والحوادث الصماء المستولية لا تسمع أنينَهم، أليس من أحدٍ يتدخل في شؤونهم الخاصة رحمةً بهم ورأفةً بأحوالهم التي يُرثى لها؟" فكانت روحي تصرخ من الأعماق. وكذا، "أليس من مالكٍ حقيقي ومولى كريم يرعى ويتولى أولئك العبيد الرائعين في الحسن وتلك الأموال القيمة الثمينة جدا، وهؤلاء الأحباب الأودّاء المشتاقين الممتنّين كثيرا؟"

نعم، كان قلبي يصرخ بهذا بكل ما أوتى من قوة.

أما الجواب الكافي الوافي الذي يبعث الاطمئنان والسكينةَ والقناعة التامة ويهدئ استغاثة روحي وصراخَ قلبي فهو: أن أولئك العبيد المحبوبين الذين يئنّون تحت ضغوط القوانين العامة للرحمن الرحيم ذي الجلال، ويستغيثون تحت ضربات الحادثات وهجومها، يمنحهم سبحانه بسرّ التوحيد ما هو فوق تلك القوانين من إحسانات خصوصية وإمدادات خاصة وربوبية مخصوصة مباشرة لكل شيء، ويدبّر سبحانه أمورَ كل شيء بذاته الجليلة. ويستمع إلى شكاوى كلِ ذي مصيبة، وهو المالك الحقيقي لكل شيء ومولاه الحق.

فمذ عرفتُ هذا السر من القرآن ونور الإيمان شعرتُ بسرور يملأ كياني كلَه، وولّى عني ذلك اليأسُ القاتم. وقد اكتسب في نظري كلُ كائن حي -من حيث انتسابه إلى المالك الجليل وعبديته له- ألوفَ الدرجات الراقية من الأهمية والقيمة، لأن كلَ أحد يفتخر ويزهو بشرف سيدِه وبمقامِ من ينتسب إليه ويعتزّ بشهرته وصِيته، مما يولِّد عزةً وفخرا لديه. فلا شك أن نورَ الإيمان الذي بسط ذلك الانتساب والعبدية هو الذي يجعل النمل يغلب فرعونا

بقوة ذلك الانتساب، بل له أن يفتخر بذلك الانتساب فخرا يفوق ألفَ مرة فخرَ فرعون السادرِ في الغفلة الظانِّ نفسَه حرا سائبا، يفتخر بأجداده الفراعنة وبمُلك مصر، ذلك الفخر الذي ينكسف لدى باب القبر. وكذا البعوض يستطيع -بإراءة شرف انتسابه- إزالةَ فخرَ نمرود الذي انقلب في سكراته إلى خجل وعذاب.

وهكذا تُعلِّمنا الآيةُ الكريمة: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان : ١٣)

أنَّ الشرك يحمل ظلما فاضحا، لأنه جريمةٌ عظيمة نكراء لتعدّيه على حقوق كل مخلوق وإهانته لشرفه وكرامته. ولا يطهّر هذه الجريمة -جريمةَ الشرك- إلّا نارُ جهنم.

***

(الشعاع الثاني/المقام الثالث/العلامة الثانية)

"جواب في غاية القوة والإيجاز عن سؤال ذي شقين في غاية الأهمية يخص هذا المقام"

الشق الأول من السؤال:

إنك تقول في هذا المقام: لقد أحاط الحسنُ والجمالُ والعدالةُ بالكون. ولكن ما تقول فيما نشاهده من القبائح والمصائب والأمراض والبلايا والأموات؟

الجواب: إن قبحا يكون سببا لإنتاج أنواع من الجمال أو سببا لإظهارها يُعدّ كذلك جمالا. وإن انعدام قبحٍ يؤدي إلى إخفاء كثير من الجمال وإلى عدم ظهوره لا يُعدّ قبحا واحدا، بل أضعافا مضاعفة من القبح.

فمثلا: إنْ لم يوجد قبحٌ كواحد قياسي، تصبح حقيقةُ الحسن نوعا واحدا وتختفي مراتبُه الكثيرة جدا. ولكن بتداخل القبح فيه تظهر مراتبُه. إذ كما تظهر درجات الحرارة بتداخل البرودة، ومراتب الضوء بوجود الظلام كذلك بوجود الشر الجزئي والضرر الجزئي والمصيبة الجزئية والقبح الجزئي تظهر الخيراتُ الكلية والمنافع الكلية والنعم الكلية وأضراب الجمال الكلي، بمعنى أن إيجاد القبح ليس قبيحا، بل جميلاً؛ لأن كثيرا من النتائج المتولدة منه جميلة. نعم، إن الكسلان الذي قد يتأذى من المطر، لا يقدح ضررُه بالنتائج الخيّرة التي جعلت المطر رحمة، ولا يمكنه أن يبدل الرحمةَ إلى نقمة.

أما الفناء والزوال والموت، فكما أُثبتت ببراهينَ قوية وقطعية في "المكتوب الرابع والعشرين" إنها لا تنافي الرحمةَ العامة والحسن المحيط والخير الشامل. بل هي من مقتضيات هذه الأمور. حتى الشيطان، فلأنه سببٌ لتحريك النابضين الأساسيين لرقي البشر المعنوي، أي التسابق والمجاهدة، فإن خلْق نوع الشيطان خيرٌ ويُعدّ من هذه الجهة جميلا. بل حتى تعذيب الكافر في جهنم، أمرٌ جميل، حيث قد تعدّى بكفره على حقوق الكائنات قاطبة واستهان بمنزلتها الرفيعة وحطّ من كرامتها.

ولما كانت هاتان النقطتان قد بحثتا بحثا مفصلا في رسائل أخرى نكتفي هنا بهذه الإشارة القصيرة.

الشق الثاني من السؤال:

﴿جواب هذا الشق الثاني مهم جدا، إذ يزيل شبهات كثيرة. (المؤلف).﴾

لنسلّم بهذا الجواب العام الذي يخص الشيطان والكافر. ولكن لِمَ يَبتلي الغنيُّ المستغني، الجميلُ المطلق، الرحيم المطلق، الخير المطلق، أفرادا ضعفاء بالمصائب والشرور والقبائح؟

الجواب: إن جميع أنواع البِرّ والحسن والنعم آتيةٌ مباشرةً من خزينة رحمة ذلك الجميل المطلق والرحيم المطلق ويرِد من فيض إحسانه الخاص. أما المصائب والشرور فهي نتائجُ جزئيةٌ قليلة فردية من بين كثير من النتائج المترتبة على قوانينه العامة والكلية، قوانين سلطان ربوبيته التي تمثّل الإرادات الكلية الجارية تحت اسم "نواميس الله وعاداته"، فتصبح تلك الأمور من المقتضيات الجزئية لجريان تلك القوانين. لذا فلأجل الحفاظ على تلك القوانين ورعايتها والتي هي مبعثُ المصالح الكلية ومدارها يخلق سبحانه تلك النتائجَ الجزئيةَ ذاتَ الشرور. ولكن تجاه تلك النتائج الجزئية الأليمة يغيث استنجاداتِ الأفراد الذين ابتُلوا بالمصائب واستغاثاتِ الذين نـزلت بهم البلايا، بإمداداته الرحمانية الخاصة وبإحساناته الربانية الخصوصية. فيُظهر بهذا أنه الفاعلُ المختار وأن كلَ شأن في كل شيء وثيقُ الصلة بمشيئته تعالى، وأن قوانينه العامة أيضا تابعة دائما لإرادته واختياره، وأن ربا رحيما يسمع نداء الذين يعانون من ضيق تلك القوانين العامة فيغيثهم ويمدّهم بإحسانه عليهم، وأنه بهذه الإحسانات الخصوصية والتوددات الخصوصية قد فَتَح أبوابَ تجلياته الخصوصية حيث قد فتح ميدانا لا يحد ولا يقيَّد لتجليات

الأسماء الحسنى غيرِ المقيدة وغير المحدودة، بشواذ النواميس الكلية والقوانين العامة ونتائجِها الجزئية ذات الشرور.

***

(المكتوب الرابع والعشرون/المقام الأول/الرمز الأول)

لقد ذكرنا في خواتيم "الكلمة السادسة والعشرين": إنَّ صنّاعاً ماهراً، يكلّف رجلاً فقيراً لقاء أجرةٍ يستحقُّها، ليقومَ له بدور النموذج "الموديل" ليَخيط لباساً راقياً، فاخراً في أجمل زينة وأكثرِها بهاءً، إظهاراً لمهارته وصنعته. لذا يفصّل على ذلك الرجلِ اللباسَ ويقُصّه ويقصِّره ويطوّلِه، ويُقعِد الرجلَ ويُنهِضه، ويجعله في أوضاع مختلفة.. فهل يحق لهذا الرجل الفقير أن يقول للصنّاع: لِمَ تبدّل هذا اللباس الذي يجمّلني؟ ولِمَ تغيّره؟ فتُقعدني تارة وتُنهضني أخرى فتفسد راحتي؟!

وكذلك الصانع الجليل (وله المثل الأعلى) قد اتخذ ماهيةَ كلِّ نوع من الموجودات مقياساً ونموذجاً "موديلاً" فألبس كلَّ شيء لباساً مرصّعاً بالحواس، ونقش عليه نقوشاً بقلم

قضائه وقَدَره، وأظهر جلوات أسمائه الحسنى، إبرازاً لكمال صنعته بنقوش أسمائه. فضلاً عن أنه سبحانه يمنح كل موجود أيضاً كمالاً ولذة وفيضاً بمثابة أجرةٍ ملائمة له.

فهل يحق لشيء أن يخاطب ذلك الصانع الجليل الذي هو مالكُ الملك يتصرّف في ملكه كيف يشاء ويقول: "إنك تتعبني وتفسد عليّ راحتي"؟ حاش لله وكلا!

إنه ليس للموجودات حق بأية جهة كانت إزاء واجب الوجود، وليس لها أن تدّعي بأي حقٍ مهما كان، بل حقُّها القيام بالشكر الدائم والحمد الدائم، أداءً لحق مراتب الوجود التي منحها إياها. لأن جميع مراتب الوجود الممنوحة للموجود إنما هي وقوعات تحتاج إلى علّة. بينما مراتبُ الوجود التي لم تُمنح هي إمكاناتٌ، والإمكاناتُ عدمٌ، وهي لا تتناهى، والعدم لا يحتاج إلى علة، فما لا نهاية له لا علة له. **مثلاً:**

لا يحق للمعادن أن تشكو قائلةً: لِمَ لم نصبح نباتاتٍ؟ بل حقُّها أن تشكر فاطرَها الجليل على ما أُنعم عليها من نعمة الوجود كمعادن.

وكذا النبات ليس له حق الشكوى، فليس له أن يقول: لِمَ لم أصبح حيواناً؟ بل حقُّه الشكر لله

الذي وهب له الوجود والحياة معاً. وكذا الحيوان ليس له حق الشكوى ويقول: لِمَ لم أكن إنساناً؟ بل عليه حق الشكر لما أنعم الله عليه من الوجود، والحياة وجوهر الروح الراقي.. وهكذا فقِس.

أيها الإنسان الشاكي! إنك لم تبقَ معدوماً، بل لبستَ نعمة الوجود. وذُقت طعمَ الحياة. ولم تبق جماداً ولم تصبح حيواناً، فقد وجدت نعمة الإسلام، ولم تبق في غياهب الضلال، وتنعّمت بنعمة الصحة والأمان.. وهكذا..

أيها الغارق في الكفران! أفَبَعد هذا تدعّي حقاً لك على ربك، إنك لم تشكر ربَّك بعدُ على ما أنعم عليك من مراتب الوجود التي هي نِعمٌ خالصة. بل تشكو منه جلّ وعلا لما لم ينعم عليك من نِعم غالية من أنواع الإمكانات وأنواع العدم ومما لا تقدر عليه ولا تستحقه، فتشكو بحرص باطل وتكفر بنعَمِه سبحانه.

تُرى لو أن رجلاً أُصعد على قمة منارة عالية ذات درجات وتسلَّم في كل درجة منها هدية ثمينة ثم وجد نفسَه في قمة المنارة، في مكان رفيع، أيحقُّ له أن لا يشكر صاحب تلك النعم ويبكي ويتأفف ويتحسر قائلاً: لِمَ لم أقدر على صعود ما هو أعلى من هذه المنارة..

ترى كم يكون عملُه هذا باطلاً لو تصرّف هكذا وكم يسقط في هاوية كفران النعمة! وكم هو في ضلالة مقيتة!. حتى البُلهاء يدركون هذا.

أيها الإنسان الحريص غير القانع! ويا أيها المسرف غير المقتصد! ويا أيها الشاكي بغير حق! أيها الغافل! اعلم يقيناً:

أن القناعة شكران رابح، بينما الحرص كفران خاسر، والاقتصاد توقيرٌ للنعمة جميل ونافع، بينما الإسراف استخفاف بالنعمة مضرّ ومشين.

فإن كنت راشداً، عوّد نفسك على القناعة وحاول بلوغ الرضى. وإن لم تطق ذلك فقل: يا صبور! وتجمّل بالصبر. وأرض بحقك ولا تشكُ. واعلم ممن وإلى مَن تشكو! إلزَم الصمت. وإذا أردت الشكوى لا محالة فاشكُ نفسَك إلى الله، فإن القصور منها.

***

(اللمعة الخامسة والعشرون/الدواء الثالث)

أيها المريض الذي لا يطيق! إنَّ الإنسان لم يأت إلى هذه الدنيا للتمتع والتلذذ. والشاهد على ذلك: رحيل كل آتٍ، وتشيّب الشباب، وتدحرجُ الجميع في دوّامة الزوال والفراق. وبينا ترى الإنسان أكملَ الأحياء وأسماها وأغناها أجهزةً بل هو السيد عليها جميعاً، إذا به بالتفكر في لذات الماضي وبلايا المستقبل، يقضي حياته في كدَرٍ ومشقة هاوياً بنفسه إلى دركاتٍ أدنى من الحيوان.

فالإنسان إذن لم يأت إلى هذه الدنيا لقضاء عيش ناعم جميل مغمور بنسمات الراحة والصفاء، بل جاء إلى هنا ليغنم سعادةَ حياةٍ أبدية دائمة بما يُسّر له من سبُل التجارة برأس ماله العظيم الذي هو العمر. فإذا انعدم المرضُ، وقع الإنسان في الغفلة نتيجة الصحة والعافية، وبدت الدنيا في عينيه حلوةً خضرة لذيذة، فيصيبه عندئذ مرضُ نسيان الآخرة، فيرغب عن ذكر الموت والقبر، ويهدر رأسَ مال عمره الثمين هباءً منثوراً.. في حين أن المرض سرعان ما يوقظه مفتّحاً عينيه، قائلاً له: "أنت لست خالداً ولست سائباً، بل أنت مسخّر

لوظيفة، دع عنك الغرور، اذكر خالقك.. واعلم بأنك ماضٍ إلى القبر، وهيئ نفسك وجهّزها هكذا".

فالمرض إذن يقوم بدور مرشد ناصح أمين موقظ، فلا داعي بعدُ إلى الشكوى منه، بل يجب التفيّؤ في ظِلال الشكر -من هذه الناحية- وإذا ما اشتددت وطأتُه كثيراً فعليك بطلب الصبر منه تعالى.

***

(اللمعة الخامسة والعشرون/الدواء السادس)

أيها الأخ المضطرب من المرض بتذكر أذواق الدنيا ولذائذها! لو كانت هذه الدنيا دائمةً فعلاً، ولو انزاح الموت عن طريقنا فعلاً، ولو انقطعت أعاصيرُ الفراق والزوال عن الهبوب بعد الآن، ولو تفرغ المستقبل العاصف بالنوائب عن مواسم الشتاء المعنوية، لانخرطتُ في صفك ولرثيتُك باكياً لحالك. ولكن مادامت الدنيا ستخرجنا منها قائلة: "هيا اخرجوا..!." صامّة آذانَها عن صراخنا واستنجادنا. فعلينا نحن قبل أن تطردنا هي نابذة لنا، أن نهجر عشقَها والإخلاد إليها من الآن،

بإيقاظات الأمراض والسعي لأجل التخلي عن الدنيا قلباً ووجداناً قبل أن تتخلى هي عنّا.

نعم، إن المرض بتذكيره إيانا هذا المعنى اللطيف والعميق، يهمس في سرائر قلوبنا قائلاً:

"بنيتُك ليست من الصُلبِ والحديد بل من موادَّ متباينةٍ مركبة فيك، ملائمة كل التلاؤم للتحلل والتفسخ والتفرق حالاً، دع عنك الغرور وأدرك عجزَك وتعرّف على مالكك، وافهم ما وظيفتُك وتعلّم ما الحكمة والغاية من مجيئك إلى الدنيا؟".

ثم ما دامت أذواق الدنيا ولذاتُها لا تدوم، وبخاصة إذا كانت غيرَ مشروعة، بل تبعث في النفس الألمَ وتكسبه ذنباً وجريرة، فلا تبك على فقدك ذلك الذوق بحُجة المرض، بل تفكّر في معنى العبادة المعنوية التي يتضمنها مرضُك والثواب الأخروي الذي يخفيه لك، واسعَ لتنال ذلك الذوق الخالص الزكي.

***

(اللمعة الخامسة والعشرون/الدواء التاسع)

أيها المريض المؤمن بخالقه! إنَّ سبب التألم من الأمراض والخوف والفزع منها ينبع من كون المرض أحياناً وسيلةً للموت والهلاك، ولكون الموت -بنظر الغفلة- مرعباً مخيفاً ظاهراً، فإن الأمراض التي يمكن أن تكون وسائل له، تبعث على القلق والاضطراب. فاعلم:

أولاً: آمن قطعاً أنَّ الأجل مقدّرٌ لا يتغيّر. فقد حدث أنْ مات أولئك الباكون عند المحتضرين في مرضهم. مع أنهم كانوا يتمتعون بصحة وعافية، وشفي أولئك المرضى الذين كانت حالتهم خطرة وعاشوا بعد ذلك أحياءً يُرزقون.

ثانياً:

إنَّ الموت ليس مخيفاً في ذاته، كما يبدو لنا في صورته الظاهرية، وقد أثبتنا في رسائل كثيرة إثباتاً قاطعاً -دون أن يترك شكاً ولا شبهة- بموحيات نور القرآن الكريم:

أنَّ الموت للمؤمن إعفاءٌ وإنهاء من كلفة وظيفة الحياة ومشقتها.. وهو تسريح من

العبودية التي هي تعليم وتدريب في ميدان ابتلاء الدنيا.. وهو بابُ وصال لالتقاء تسعة وتسعين من الأحبة والخلّان الراحلين إلى العالم الآخر.. وهو وسيلةٌ للدخول في رحاب الوطن الحقيقي والمقام الأبدي للسعادة الخالدة.. وهو دعوة للانتقال من زنزانة الدنيا إلى بساتين الجنة وحدائقها.. وهو الفرصة الواجبة لتسلّم الأجرة إزاء الخدمة المؤداة، تلك الأجرة التي تُغدق سخية من خزينة فضل الخالق الرحيم.

فما دامت هذه هي ماهية الموت -من زاوية الحقيقة- فلا ينبغي أن يُنظَر إليه كأنه شيء مخيف، بل يجب اعتباره تباشيرَ الرحمة والسعادة. حتى إن قسماً من "أهل الله" لم يكن خوفُهم من الموت بسبب وحشة الموت ودهشته، وإنما بسبب رغبتهم في كسب المزيد من الخير والحسنات بإدامة وظيفة الحياة.

نعم إنَّ الموت لأهل الإيمان باب الرحمة. وهو لأهل الضلالة بئر مظلمة ظلاماً أبدياً.

***

(الكلمة الرابعة عشرة/ذيل الكلمة الرابعة عشرة)

السؤال الثالث

لماذا تعمّ هذه المصيبة البلادَ كلَّها، علما أنها مصيبة ناجمة من أخطاء يرتكبها بعضُ الناس؟

الجواب: إن أغلب الناس يكونون مشتركين مع أولئك القلةِ الظَلَمة، إمّا مشاركةً فعلية، أو التحاقا بصفوفهم أو التزاما بأوامرهم، أي يكونون معهم معنىً، مما يُكسب المصيبةَ صفةَ العمومية، إذ تعمّ المصيبةُ بمعاصي الأكثرية.

السؤال الرابع

ما دامت هذه الزلزلة قد نشأت من اقتراف الخطايا والمفاسد، ووقعت كفّارةً للذنوب، فلماذا تصيب الأبرياءَ إذن، ويحترقون بلظاها وهم لم يقربوا الخطايا والذنوب، وكيف تسمح العدالةُ الربانية بهذا؟

وكذلك بمعاونة تنبيهٍ معنوي كان الجواب هو الآتي: إن هذه المسألة متعلقة بسر القدَر الإلهي، لذا نحيلها إلى "رسالة القدر" ونكتفي بالآتي: قال تعالى:

﴿واتقوا فتنةً لا تُصيبنَّ الذين ظَلَموا منكم خاصّة﴾ (الأنفال:٢٥) وسرّ هذه الآية ما يأتي:

إن هذه الدنيا دارُ امتحان واختبار، ودارُ مجاهدة وتكليف، والاختبارُ والتكليف يقتضيان أن تظل الحقائقُ مستورةً ومخفية، كي تحصل المنافسة والمسابقة، وليَسموَ الصدّيقون بالمجاهدة إلى أعلى علّيين مع أبي بكر الصديق، وليتردّى الكذابون إلى أسفل سافلين مع أبي جهل. فلو سَلِمَ الأبرياءُ من المصيبة ولم يمسّهم سوء ولا أذىً، لأصبح الإيمان بديهيا، أي لاستسلم الكفار والمؤمنون معا على حدّ سواء، ولانتفى التكليفُ وانسدّ بابُه، ولم تبق حاجة إلى الرقي والسمو في مراتب الإيمان.

فما دامت المصيبة تصيب كلاّ من الظالمين والمظلومين معا، وفق الحكمة الإلهية، فما نصيب أولئك المظلومين من العدالة الإلهية ورحمتها الواسعة؟.

الجواب: إن هناك تجليا للرحمة في ثنايا ذلك الغضب والبلاء، لأنّ أموالَ أولئك الأبرياء الفانية ستُخلَد لهم في الآخرة، وتُدّخر صدقةً لهم، أما حياتُهم الفانية فتتحول إلى حياة باقية بما تكسب نوعا من الشهادة؛ أي إن تلك المصيبة والبلاء بالنسبة لأولئك الأبرياء نوع

من رحمة إلهية ضِمن عذاب أليم موقت، حيث تمنح لهم بمشقة وعذاب مؤقتين، وقليلين نسبيا، غنيمة دائمة وعظيمة.

السؤال الخامس

إن الله سبحانه وتعالى، وهو العادل الرحيم، والقدير الحكيم، لا يُجازي الذنوب الخاصة بعقوبات خاصة، وإنما يُسلّط عنصرا جسيما كالأرض، للتأديب والعقاب. فهل هذا يوافق شمولَ قدرته وجمالَ رحمته سبحانه؟.

الجواب: لقد أعطى القدير الجليل كلَّ عنصرٍ من العناصر وظائفَ كثيرة، ويُنشئ على كلٍّ من تلك الوظائف نتائج كثيرة. فلو ظهرتْ نتيجة واحدة قبيحة -أي شر ومصيبة وبلاء- من عنصر من العناصر في وظيفة من وظائفه الكثيرة، فإنّ سائر النتائج المترتبة على ذلك العنصر، تجعل هذه النتيجة الوخيمة في حُكم الحَسن والجميل، لأنها جميلة وحسنة. إذ لو مُنع ذلك العنصرُ الغاضب على الإنسان من تلك الوظيفة للحيلولة دون مجيء تلك النتيجة الوحيدة البشعة للوجود، لتُركتْ إذن خيرات كثيرة بعدد النتائج الخيّرة المترتبة على سائر وظائف ذلك العنصر؛ أي تحصل شرور كثيرة بعدد تلك النتائج الخيّرة، حيث إن عدم القيام

بخير ضروري، إنما هو شر كما هو معلوم. كل ذلك للحيلولة دون مجيء شر واحد! وما هذا إلاّ منافاة للحكمة. وهو قبح واضح، ومجافاة للحقيقة، وقصور مشين. بينما الحكمة والقدرة والحقيقة منـزهة عن كل نقص وقصور.

ولما كان قسم من المفاسد هو عصيانا شاملا وتعدّيا فاضحا على حقوق كثير من المخلوقات وإهانةً لها واستخفافا بها حتى يستدعي غضبُ العناصر ولا سيما الأرض، فيثير غيظها، فلاشك أن الإيعاز إلى عنصر عظيم بأن يؤدب أولئك العصاة، إظهارا لبشاعة عصيانهم وجسامة جناياتهم، إنما هو عينُ الحكمة والعدالة، وعين الرحمة للمظلومين في الوقت نفسِه.

***

تتمة السؤال السادس وحاشيته

إنّ أهل الضلال والإلحاد، يبدون تمردا غريبا، وحماقةً عجيبة إلى درجة تجعل الإنسان نادما على إنسانيته، وذلك في سبيل الحفاظ على مسلكهم المعوّق لصحوة الإيمان. فمثلا: إن

العصيان الظالم المظلم، الذي اقترفه البشر في الآونة الأخيرة، والذي عمّ العالم وشمِله، حتى أغضب العناصر الكلية. بل تجلّتْ ربوبيةُ خالق الأرض والسماوات بصفة رب العالمين وحاكم الأكوان -لا بصفة ربوبية جزئية خاصة- في العالم أجمع، وفي دائرة كلية واسعة.

فصفعَ ربُّ العالمين البشريةَ ببلايا وآفات عامة مُرعبة كالحرب العالمية والزلازل والسيول العارمة والرياح الهوج والصواعق المحرقة والطوفانات المدمّرة. كل ذلك إيقاظا لهذا الإنسان السادر في غفلته، وسوقا له ليتخلّى عن غروره وطغيانه الرهيب. ولتعريفه بربّه الجليل الذي يُعرض عنه. فأظهَرَ سبحانه حكمتَه وقدرتَه وعدالته وقيوميته وإرادته وحاكميته إظهارا جليا. ولكن على الرغم من هذا فإن شياطينَ حمقى ممن هم في صوَر أناسيّ، يتمردون في وجه تلك الإشارات الربانية الكلية والتربية الإلهية العامة للبشرية، تمردا ببلاهة مشينة، إذ يقولون: إنها عوامل طبيعية، إنها انفجار مواد وأخلاط معادن، إنها مصادفات ليس إلاّ.. فقد تصادمت حرارةُ الشمس والكهرباء فأحدثتْ توقفا في المكائن في أمريكا لمدة خمس ساعات واحمرّ الجو في "قسطموني" حتى كأنه يلتهب.! إلى آخر هذه

الهذيانات التي لا معنى لها. فالجهل المريع الناشئ من الضلال، والتمرد المقيت المتولد من الزندقة، يحولان دون إدراكهم ماهية الأسباب، التي هي حُجب وستائر "أمام القدرة الإلهية" ليس إلاّ.

فترى أحدهم -من جهله- يبرز أسبابا ظاهرية، ويقول: هذه الشجرة الضخمة للصنوبر -مثلا- قد أنشأتها هذه البذرة. منكرا معجزةَ صانعها الجليل. علما أنه لو أحيلتْ إلى الأسباب لما كفتْ مائة من المصانع لتكوين تلك الشجرة. فإبراز أسباب ظاهرية -مثل هذه- إنما هو تهوين من شأن عظمة فعل الربوبية الجليلة المفعمة بالحكمة والاختيار.

وترى آخر يطلق اسما علميا على حقيقة مهمة يقصر العقل عن إدراك مداها وعمقها. فكأن تلك الحقيقة قد عُرفت وعُلِمت بمجرد وضع إسم عليها. وغدت مألوفةً معتادة، لا حكمة فيها ولا معنى!

فتأمّل في هذه البلاهة والحماقة التي لا منتهى لهما! إذ الحقيقةُ التي لا تسع مائةُ صحيفة لبيان حكمتها وتعريفها، كأن وضعَ هذا العنوان عليها جعلَها معروفةً مألوفة! وقولهُم: هذا الشيء من هذا. وهذه الحادثة من مادة

الشمس التي اصطدمت بالكهرباء، جعل ذلك الشيء معروفا وتلك الحادثة مفهومة!!

بل يُظهر أحدهم جهلا أشدَّ من جهل أبى جهل، إذ يُسند حادثة ربوبية مقصودة خاصة، يرجعها إلى أحد قوانين الفطرة، وكأنّ القانونَ هو الفاعل! فيقطع بهذا الإسناد نسبةَ تلك الحادثة إلى الإرادة الإلهية الكلية واختياره المطلق وحاكميته النافذة والتي تمثلها سنَنُه الجارية في الوجود.. ثم تراه يُحيل تلك الحادثة إلى المصادفة والطبيعة! فيكون كالأبله العنيد الذي يحيل الانتصار الذي يحرزه جندي أو فرقة، في الحرب، على نظام الجندية وقانون العسكرية، ويقطعه عن قائد الجيش، وسلطان الدولة، والأفعال الجارية المقصودة.

ولْننظُر إلى حماقتهم الفاضحة بهذا المثال: إذا ما صنع صنّاع ماهر مائة أوقية من مختلف الأطعمة، ومائة ذراع من مختلف الأقمشة، من قطعة صغيرة من خشب لا يتجاوز حجمها قلاّمةَ أظْفُرٍ. وقال أحدهم: إن هذه الأعمال الخارقة قامت بها تلك القطعة الخشبية التافهة! ألا يرتكب حماقة عجيبة؟ فهذا شبيه بمن يُبرز بذرة صلدة وينكر خوارقَ صنع الصانع الحكيم في خلق الشجرة، بل يحطّ من قيمة تلك الأمور

المعجزة بإحالتها إلى مصادفة عشواء أو عوامل طبيعية! والأمر كذلك في هذا..